بسم الله الرحمن الرحيم

كتب بعضهم صفحات سمَّاها: «مناقشة الدكتور بشار عواد في قوله بأن فتنة القول بخلق القرآن سياسية». والمعروف عني أنني لا أرد لكن وجدت من الواجب عليَّ توضيح هذه المسألة لما قد تسببه من لغط. ولا بد لي من أن أشكره أولًا لأنه لم يحشرني في زمرة العلمانيين والحداثيين، وعلى حسن ظنه بي وبما رزقني الله من علم، لكنه زعم أني أخطأت في قولي بأن مسألة خلق القرآن كانت أهدافها سياسية.

والظاهر أنه لم يفهم قصدي من هذه القالة، ولو كان من دارسي التاريخ لما قالها، فإن الأحداث التاريخية تشير إلى أن مقتل الأمين ببغداد سنة ١٩٨هـ واستمرار وجود المأمون في المشرق حتى سنة ٢٠٤هـ، وهي مدة طويلة اضطربت أمور بغداد فتصدى عدد من علماء أهل السنة لحفظ الأمن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانوا بديلًا حقيقيًا عن السلطة السياسية التي تكاد أن تكون غائبة على الرغم من تنصيب إبراهيم بن المهدي خليفة سنة ٢٠١هـ أي بعد ثلاث سنوات من مقتل الأمين.

ولما عاد المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ وجد السُّلطة الحقيقية بيد علماء أهل السنة، وأن سلطته السياسية ضعيفة، وازداد نفور العلماء والناس منه حينما أمر سنة ٢١١هـ مناديًا ينادي: «برئتِ الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، وفي سنة ٢١٢هـ أظهر القول بخلق القرآن وتفضيل عليّ بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وأنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ فكاد البلد يفتتن ولم يلتئم له من ذلك ما أراد فكفّ عنه إلى سنة ٢١٨هـ **حيث أعلن حربه على غير القائلين بخلق القرآن، لأنه يعلم جيدًا أن هذه العقيدة من صُلْب عقائد أهل السنة التي لا يمكن أن يتساهلوا فيها، فاستعملها في امتحانهم لأغراضه السياسية، وسار على نهجه المعتصم والواثق، فقتلوا من قتلوا، وأبدوا بعضهم بالسجون، وعذبوا آخرين.**

لقد بين الكاتب أهمية عقيدة أهل السنة في القرآن، ولم يكن بحاجة إلى ذلك لأن هذا الأمر لا ينتطح فيه عنزان، فكلنا يقول بقول أهل السنة، لكنه وقع في خطأ مستعظم حينما ذكر أنَّ الإمام أحمد لم يكن يجيز الخروج على السلطان وإن كان جائرًا ـ وهو صحيح ـ لكنه ذكر في الوقت نفسه: أن «**سلف الأمة جميعًا، قد تواردوا جميعًا على تكفير القول بخلق القرآن... وعدوا ذلك مناقضًا لأمر قطعي في الشريعة، وأطلقوا أحكام الكفر الأكبر على المخالفين، وحكموا على جملة من الأعيان بالخروج من الإسلام... وأن مذهب السلف ظاهر المعنى في سبب تبنيهم للقول بتكفير القول بخلق القرآن**».

وهذا يقتضي أن كل من قال بخلق القرآن كافر خارج عن الإسلام، وقد ثبت أنَّ المأمون والمعتصم والواثق هم من القائلين بخلق القرآن، فكيف جاز للإمام أحمد أن لا يخرج على الكفار؟! وهل يجوز لإمام من أئمة المسلمين طاعة الكافرين وعدم الخروج عليهم؟!

والحق أن القول بتكفير القائلين بخلق القرآن لا يصح وإن صدر عن بعض الأئمة، لأنَّ نتائج خطيرة تتبع ذلك، والإمام شيخ الإسلام ابن تيمية الثابت عنه أنه لا يكفر أحدًا من أهل القبلة.

إن مشكلة هؤلاء وأضرابهم أنهم لم يتعمقوا في قراءة التاريخ، فيطلقون الأحكام من غير روية من مثل قوله إنَّ سَلَفَ الأمة لم يجيزوا الخروج على حكام الجور، فهو قول غير صحيح تكذبه الوقائع التاريخية، فقد خرج علماء عاملون من أهل الحديث خاصة مع عبد الرحمن بن الأشعث، وخرج علماء عاملون مع إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وكان أحمد بن نصر الخزاعي ونُعيم بن حماد والبويطي وأضرابهم يرون الخروج، ولكن رأى أكثر علماء أهل السنة فيما بعد المحنة عدم الخروج.

لقد تناول ولدي الدكتور محمود بشار هذه القضية في كتابه «موقف علماء أهل السنة من السلطة السياسية في العصر العباسي الأول» بشيء من التفصيل أنصح الإخوة بقراءتها وتدبرها (لا سيما الصفحات ٢٢١-٢٨١).

لقد كنتُ من أكثر الناس تعظيمًا للعلماء الذين لم يقولوا بخلق القرآن واستمروا على مواقفهم الشجاعة، أمثال أحمد بن نصر الخزاعي، وأبي مُسهر عبد الأعلى بن مُسهر، ونُعيم بن حماد المروزي، والبويطي وغيرهم، تدل على ذلك تعليقاتي على تراجمهم في الكتب التي حققتها، وهي ظاهرة للعيان لا تحتاج إلى بيان.

لقد استغل المأمون والمعتصم والواثق المعتزلة كواجهة عقائدية ضد أهل السنة والجماعة، وكان الهدف من ذلك دائمًا التقليل من شأن علماء أهل السنة ومنزلتهم عند الناس، لكنهم لم ينجحوا.

وقد رأى المتوكل أن مصلحته السياسية تقتضي احتضان بعض علماء أهل السنة، لكن جثة أحمد بن نصر الخزاعي المصلوبة في سامراء ورأسه ببغداد بقيت كذلك خمس سنوات من حكمه الذي دام سبع سنوات. وهو الذي أراد أن يحقق إقامة جبرية للإمام أحمد في سامراء لكنه لم ينجح بسبب إصرار الإمام أحمد، فأعاده إلى بغداد وأقامه إقامة جبرية في داره إلى حين وفاته.

هذه هي الحقائق التي يتعين أن يتدبرها العقلاء ويفهموا مواقف بعض الحكام العباسيين من أهل السنة والجماعة، والله من وراء القصد، وهو الموفق للصواب إليه المرجع والمآب.

بشار عواد معروف